

دراسات الأدب المعاصر
السنة الرابعة، العدد ١٤، صيف ١٣٩١ش
ص ٣١-٥٤

السّخرية عند الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي

حامد صدقي* - عبدالكريم البوغبيش**

الملخص

تمثل السخرية فناً من الفنون الإنسانية التي تعبّر عن تطوّر المجتمعات البشرية عبر التاريخ. والسخرية هي نمط من أنماط الكوميديا والتي تنقسم إلى أنماط عدّه مثل: الهجاء أو الدراما الهجائية (Stair) التي تهاجم العادات والأخلاق والأفكار والمؤسسات الاجتماعية بشكل يتسم بخفة السّدّم (الظرف) والسخرية أو التهكم (Sarcasm).

تحاول هذه المقالة دراسة السخرية عند الشاعر العراقي الكبير أحمد الصافي النجفي الذي يعدّ من روّاد الشعر الساخر العراقي عامّة والنجفي خاصّة، ولقد تحدثنا عن السّخرية ومدلولها والتقسيمات التي وردت من قبل النقاد الغربيين وبعد ذلك جئنا ببندة عن حياة الشاعر ثمّ تطرقنا إلى سخرية الشاعر بشتّى أغراضها.

الكلمات الدليلية: السخرية، الشعر المعاصر، العراق، أحمد الصافي النجفي.

* جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات، طهران، إيران. (أستاذ)

** جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات، طهران، إيران. (طالب مرحلة الدكتوراه)

A_Albughobaiash@gmail.com

تاريخ القبول ١٣٩١/٤/١٢

تاريخ الوصول ١٣٩٠/٩/١٣

المقدمة

تمثل السخرية فناً من الفنون الإنسانية التي تعبر عن تطوّر المجتمعات البشرية عبر التاريخ. والسخرية هي نمط من أنماط الكوميديا والتي تنقسم إلى أنماط عدّة مثل: الهجاء أو الدراما الهجائية (Stair) التي تهاجم العادات والأخلاق والأفكار والموسسات الاجتماعية بشكل يتسم بخفة الدّم (الظرف) والسخرية أو التهكم (Sarcasm).

وهناك أيضاً الهزل (Farce) الذي يتم فيه المزح (الهزء) بالحياة من خلال اختراع مواقف عبثية وشخصيات مبالغ فيها. وهناك كذلك المحاكاة الساخرة (burlesque) التي تتضمن السخرية من الأعمال (الفنية) الأخرى من خلال الكاريكاتور والمحاكاة التهكمية (Parody)، وهناك أيضاً الكوميديات السوداء أو القاتمة، وهي الأعمال الكوميديّة ذات المذاق السيء التي يجد الجمهور صعوبة في تقرير ما إذا كان عليهم أن يهاجموها، بشكل صاخب.

وكما نعلم يعدّ الشعر - بحق - من أروع الألوان الأدبية التي أنتجتها قريحة الإنسان؛ لما ينطوي عليه من المجالات الفنيّة الخصبة التي لاتزال تنبض بالحياة والحيوية. وإنّما كان الشعر كذلك، لأنّه يستمدّ أفكاره ومضامينه من واقع البيئة التي يحيا فيها الأديب، معبراً عن الآمال والآلام، من خلال أنصهاره في بوتقة الواقع حيث يتلقّى الأديب وحيه من خلاله. وهذا مبني على أساس من الصّلة القوية التي تربط بين الأديب بوجه عام والحياة في شتى مجالاتها، وهذا يعنى أن أدب كل أمة صورة واضحة المعالم لها في شتى ظروفها وأحوالها.

ولهذا فليس بمستغرب أن يأتي شعراء العراق بصورة عامة وشعراء النجف بصورة خاصة في العصر الحديث - بما يتحقق فيه من مبدأ المعاصرة - حاملين بين طياتهم كثيراً من القضايا الوطنية والسياسية والاجتماعية، والثّقافية، والمشكلات الشخصية السائدة، ثمّ يعكس ظلال الوعي القومي تجاهها.

ومن ذلك ندرك: أن كثيراً من الشعراء كانوا ينظمون أشعارهم، وقد صنعوا أمام

أعيونهم قضايا بلادهم ومشاكل وطنهم، واتخذوا من هذا الشعر وسيلة للإصلاح والتقويم وبث الوعي وإيقاظ الهمم الغافلة. ويعدّ شاعرنا أحمد الصافي النجفي من كبار شعراء العراق الذين اتخذوا من السخرية فناً لبيان ما يخلج في أذهانهم وإيصال فكرتهم إلى الناس دون أن يتعرضوا لضرر من قبل السلطات الحاكمة. والحق، أنّ ظروف الحياة السياسية العراقية، بما وجد فيها من احتلال أجنبي بغيبض، ثمّ من فرض للحماية على البلاد، ثمّ مشكلة الامتيازات الأجنبية، وما كان من قهر وإذلال للشعوب العربيّة عامّة وما تبع ذلك من ظهور المشاكل الاجتماعية، والقضايا الفكرية التي غصّت بها الحياة العراقية.

كلّ ذلك كان دافعاً قوياً إلى صبّ الشعراء العراقيين بصورة عامة والنجفيين بصورة خاصة جام غضبهم وسخطهم على عدوّهم ومحتلّ أرضهم ومن يمدّ يد العون اليهم من خلال منظوماتهم الشعريّة الساخنة والتي بدأت "السخرية" فيها فناً أدبياً متميزاً. لقد حاولنا في كتابة هذا المقال أن نأتي بدراسة مختصرة حول السخرية، وكذلك دراسة مختصرة حول حياة الشاعر وبعد ذلك الدخول في صلب المقال.

الإشتقاق اللغوي لكلمة السخرية ومدلولها

يجدر بنا ما دمنا في معرض الحديث عن السخرية في الأدب أن نحدّد مدلول هذه الكلمة اللغوي، كما ورد في المعاجم والقواميس، ومعاني الكلمات التي تدور في فلكها كالتهمك والدّعاة والهزل.

أما السخرية فالفعل منها سخر، واللغة الفصحى سخر منه، وبها ورد القرآن، قال الله تعالى: (سخر الله منهم) وقال الفراء يقال سخرت منه ولا يقال سخرت به وأجاز الأخفش كلاهما وقال النووي الأفصح الأشهر سخر منه وإنما جاء سخر به لتضمنه معنى هزىء. وفي الكتاب العزيز: (وإذا رأوا آية يستسخرون). قال الرماني: يدعو بعضهم بعضاً إلى أن يسخر. وسخر واستسخر كعجب وتعجب واستعجب والاسم السخرية. قال تعالى: (إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون) أي إن تستجهلونا أي تحملونا على الجهل على سبيل الهزء فإننا نستجهلكم كما تستجهلونا،

وإنما فسر بالاستجهال هرباً من إطلاق الاستهزاء عليه تعالى. (الزبيدي، لاتا: مادة "سخر")

أما التّهكم: فيقصد به قديماً وضع سؤال مع تصنع الجهل. والغرض من ذلك تخليص العقول من العلم الزائف وإعدادها لقبول الحق. ويقصد به حديثاً تأييد رأى بما يعارضه بقصد السخرية. (الجوهري، ١٩٩٠م: مادة "هكم")
والدّعاية: المزاح وفي الحديث أنّه (صلى الله عليه وآله) قال لجابر رضى الله عنه وقد تزوج: (أبكرأ تزوجت أم ثيبا. فقال: بل ثيبا. قال: فهلا بكرأ تداعبها وتداعبك) والدعاية اللعب. ^١ والهزل: تقيض الجد. هزل فى الأمر كضرب ومرح وفى التنزيل: (وما هو بالهزل). قال ثعلب أى ليس بهذيان. وفى التهذيب أى ما هو باللعب. وفلان يهزل فى كلامه إذا لم يكن جادا، نقول أجاد أنت أم هازل؟ والهزلة الفكاهة. (ابن منظور، ١٩٩٧م: مادة "دعب")

وبعد هذا العرض الدقيق لمدلول تلك الكلمات وطبيعة الفوارق اللغوية الدقيقة بينها، نستطيع القول إن لإدراجها تحت مفهوم السخرية أمر منوط بالاستعمال والقصد، فقد يسخر الرجل من نفسه وأصحابه ومجتمعه بمزج الجدّ بالهزل وبالتهكم الجارح أو الدعاية اللطيفة المحببة. والأسطر القادمة نأتى ببذة عن حياة الشاعر الصافى النجفى وندرس ما وجدنا من سخرية فى دواوينه الشعريّة.

بذة عن حياة الشاعر أحمد الصافى النجفى

ولد شاعرنا أحمد الصافى النجفى فى مدينة النجف الأشرف عام ١٨٩٧م. (شرارة، لاتا: ٤) «لأب من أسرة حجازية الأصل وأمّ لبنانية من مدينة صور.» «تنحدر أصوله من أسرة علمية دينية مرموقة يتصل نسبها بالإمام موسى الكاظم (ع) وكانت تعرف بآل السيّد عبد العزيز.» (برهومي، ١٩٩٣م: ١٥) وتلقّى دراسته فى مدارس النجف، ثم انتقل إلى إيران، أو هرب إلى إيران بعبارة أصحّ وذلك فى العشرين من عمره فى عام ١٩٢٠م حيث أصدر الحاكم الإنجليزى أمراً بإلقاء القبض على الصافى لكونه من المحرضين على ثورة العشرين، فاضطر إلى مغادرة العراق إلى إيران. وحين وصل

الشاعر إلى طهران قرأ في الصحف الإيرانية وأخذ يدرس اللغة الفارسية وآدابها أثناء مكوثه في طهران، ويطلع على ما في نتاج الشعراء الإيرانيين من كنوز وروائع، ولم يكد يمضى عام واحد فقط إلا وكان الصافي يجيد اللغة كتابة وقراءة وتحديثاً، وتمكّن أن ينشر ويترجم في أشهر المجلات والصحف الإيرانية من أمثال صحيفة "كوشش" و"شفق سرخ" و"ستاره إيران" و"إقدام"، ومجلة "تعليم وتربيت"، ومجلة "أرمغان" لسان حال النادي الأدبي في طهران وسواها من الصحف والمجلات الشهيرة. (المصدر السابق: ٢٠-٢٢ بتصرف)

فلت الأنتظار إليه وانتخب عضواً في النادي الأدبي وبعدها عين عضواً في لجنة التأليف والترجمة، ثم كلفته وزارة المعارف في إيران ترجمة كتاب في (علم النفس) لمؤلفيه علي الجارم وأحمد أمين من العربية إلى الفارسية ليدرّس في دار المعلمين بطهران. فترجمه بدقة إلى الفارسية، ثم ترجم رباعيات الخيام من الفارسية إلى العربية إذ تعتبر أفضل ترجمة لأنه نقلها عن الأصل الفارسي وطبعت للمرة الأولى في طهران، حيث قال الصافي بعد فراغه من التعريب: ... ولما أكملتُ التعريب عرضته على أدباء الفرس فقابلوه بالأصل وأكبروه غاية الإكبار.

ثم عاد إلى العراق بطلب من الحكومة العراقية وأصدقائه ليخدم بلده فعين قاضياً في مدينة الناصرية لثلاث سنوات. (عمران، ٢٠٠٩م: شبكة النبا المعلوماتية) وفي عام ١٩٣٠م، ذهب إلى سورية للاستشفاء على إثر وعكة صحية آلمت به، وكان ينتقل بين دمشق وبيروت متابعاً رسالته الأدبية. وعندما اندلعت الحرب بين الحلفاء والمحور عام ١٩٤١م أدخل الصافي النجفي السّجن بأمر السلّطات الإنكليزية إثر الأشعار الوطنية التي راح ينظمها ويهاجم فيها الاستعمار والمستعمرين حتى ألهب حماس العراقيين، ومكث في التوقيف ثلاثة وأربعين يوماً تحت إدارة الأمن العام الفرنسي ثم أفرج عنه ونظم في السّجن ديوانه الشهير "حصاد السّجن"، الذي يعد ظاهرة فريدة من نوعها في الأدب الحديث، وأهداه لكفاح الشعب العراقي ضد الانجليز وعملائهم قائلاً: (الصافي النجفي، ١٩٨٣م: ٤٢)

لَتَيْنِ أَسْجَنُ فَمَا الْأَقْفَاصُ إِلَّا لَلَيْثِ الْعَابِ أَوْ لِلْعَنْدَلِيبِ
أَلَا يَا بُلْبُلًا سَجَنُوكَ ظَلَمًا فَنُحِتَ لِفُرْقَةِ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ

وقد حرص الشاعر على إبقاء حصيلة أشعاره في السجن بعيدة عن النشر لأسباب لم يفسح عنها في حينه ومن المرجح أنها كانت سياسية.

أمضى الصافي ٣٦ عاماً متنقلاً بين إيران وسورية ولبنان وكانت المقاهي ضالته في دمشق فكان يرتاد مقاهي "الهافانا" و"الكمال" و"الروضة" لأنها كانت ملتقى الشعراء والأدباء والصحفيين. كان الصافي قليل الدخّل فاتخذ غرفة قديمة في "مدرسة الخياطين" وكان من أصدقائه بدمشق الدكتور عبد السلام العجيلي وفخرى البارودي وبدوى الجبل ومحمد الحريري وأحمد الجندی وعمر أبوريشة وسعيد الجزائري. ومن أصدقائه في لبنان الشاعر القروي وميخائيل نعيمة ومارون عبود وغيرهم.

حياة الغربة والتشرد والسجون

عاش الصافي النجفي سنين عجافاً، حياة ممزقة بين السقم واليتم والألم والحرمان؛ مات أبوه ولم يبلغ الثانية عشرة، وتوفيت أمّه ولم يكمل السابعة عشرة من عمره، فدهمته الأحزان والعلل، حتى قال في ذلك: (برهومي، ١٩٩٣م: ٤١)

أَسِيرٌ بِجِسْمٍ مُشْبِهٍ جِسْمَ مَيِّتٍ كَأَنِّي إِذَا أَمْشَى بِهِ حَامِلًا نَعْشِي

وعاش غريباً داخل نفسه وغريباً بين أهله وعشيرته "بل الغريب من هو في غربته غريب" كما يقول أبوحيان التوحيدى. فكتب الصافي، بحسّ مرهف وبدمع ذارف، أجمل قصائد الغربة، والمعاناة من السجن التي وصفها بالغربة داخل الغربة لأنه سجن خارج وطنه: (المصدر السابق: ٣٦)

فَكَيْفَ بِسَجْنِ إِنْسَانٍ غَرِيبٍ؟! أَرَى فِي غَرَبَةِ الْإِنْسَانِ سِجْنًا

كما عبّر عن ذلك في قصيدة "شاعر وأزهار" إذ يقول ونحن نلمس في قوله عذوبة لغته وفرط حساسيته المتمزجة بالألم والمعاناة.

أَقْبَلُ الزَّهْرَ فِي الْأَغْصَانِ مَزْدَهِيًّا وَمَا تُسَوِّغُ كَفِي قَطْفِ أَزْهَارِ

جَرَبْتُ مِنْ غُرْبَتِي مَا لَسْتُ أَحْمِلُهُ فَمَا أَكْلَفُ غَيْرِي غُرْبَةَ الدَّارِ
تَمَوْتُ لِلْغُرْبَةِ الْأَزْهَارُ إِنْ قُطِفَتْ فَكَيْفَ يَحْيَا غَرِيبٌ رَهْنُ أَسْفَارِ؟
لَوْ كَانَ يَحْمِلُ حَسَّ الزَّهْرِ مُغْتَرِبٌ لَمَاتَ كَالزَّهْرِ مِنْ هَمٍّ وَأَكْدَارِ
يَبْدُو لِي الزَّهْرُ تَزْدَانُ الصُّدُورُ بِهِ مِثْلَ الشَّهِيدِ بِلا جُرمٍ وَأَوْزَارِ

طاف الصافي مدناً ودولاً عديدة منفياً مطارداً من أنظمة متتابعة، تسلطت على حكم البلاد ورفعت الشعارات الكاذبة لتخدير عقول أبناء الشعب العراقي وساهمت في تثبيت أقدام المحتلين والدخلاء، أكثر من خمسين عاماً قضاها بعيداً عن العراق تطلب رأسه جميع الحكومات، وتهاجم قصائده كل الحكومات.

وهكذا فقد كان الصافي شريداً من كيد حكام الجور الضالعين في ركاب الاستعمار لرفضه وجود المحتلين الأجانب لبلاده وكان الصافي يكنُّ كرهاً شديداً للإنجليز بسبب جرائمهم في العراق والدول العربية حيث يقول: (الصافي النجفي، ١٩٨٣م: ١٢٦)

أَحَارِبُ جِنْسَ الْإِنْجِلِيزِ لِأَتْنِي وَقَفْتُ عَلَى نَصْرِ الْحَقِيقَةِ مِخْدَمِي
أَحَارِبُهُمْ حَرَبِي لِكُلِّ رَذِيلَةٍ إِلَى كُلِّ شَيْطَانٍ إِلَى كُلِّ أَرْقَمِ
أَخَافُ إِذَا مَاتُوا، تَمَوْتُ أَبَالْسُ فَأَبْقَى بِلا لَعْنِي لَهُمْ، نِصْفَ مُسْلِمِ!
تُحَارِبُهُمْ رُوحِي وَكَفِّي وَمَنْطِقِي وَإِنْ هُمْ نَوَّوْا قَتَلِي يَحَارِبُهُمْ دَمِي!

ويبدو واضحاً من تلك الأبيات مدى الكره والبغض اللذين كان الشاعر يضمهما للإنجليز؛ فهو يعتبرهم رذيلة ورجساً على الأرض، بل هم الشيطان نفسه، وهم يحملون صفة الغدر كما يحملها الثعبان في أسوء أنواعه.

لقد كان الصافي مطارداً من قِبَلِ الإنجليز، فحط الرحال، بعد طول غياب، في أرض لبنان، ليناصب الفرنسيين العداء الذين قرروا إبعاد صوته الذي كان يتسلل إليهم من بين الأصوات كفورة دمٍ ولمعة نجمٍ في سماءٍ لا تكدرها الغيوم، فكان لهم ما أرادوا وله ما أراد: (المصدر السابق: ٣٤)

سُجِنْتُ وَقَدْ مَرَّتْ ثَلَاثُونَ حِجَّةً مِنْ الْعَمْرِ فِيهَا لِلْسَّجُونِ تَشَوَّقْتُ

سَعَى "دَعْبِلٌ" لِلسَّجْنِ طَوْلَ حَيَاتِهِ فِخَابٍ، وَفِي الْمَسْعَى لِسِجْنِي تَوَقَّفْتُ

مرّت بالصافي السنون، وحياته سجلّ بين المرض والمنون، بيد أن النضال كان يهبه أسباب الحياة، ويُلَبَسُ خصومه عوامل الخواء، وكانت لعناته منصة على بريطانيا أم الفساد، والسبب الرئيس أنّها وراء كل المشاكل التي يعاني منها العراق: (المصدر السابق: ٤٧)

خَسَتْ إِنْكَلْتِرَا وَاللَّهُ أَعْمَى مُقْلَتِيهَا

قَبْرُهَا فِي كُلِّ أَرْضٍ حَفَرْتَهُ بِيَدَيْهَا

سَجَنْتَنِي دُونَ ذَنْبٍ غَيْرَ لَعْنِي أَبُوَيْهَا

أَمَّتْ حَرْبِي، وَسِجْنِي يُعْلَنُ الْحَرْبَ عَلَيْهَا!

تري ماذا كان شاعرنا الصافي ليقول لو كانت حياته امتدت إلى هذا الزمن، الزمن الذي أصبحت فيه القوى الاستعمارية الكبرى صديقة للمسلمين في ليلة وضحاها! ومن العجب أن (بعض المسلمين) الذين كانوا يدعون حتى فترة قريبة أن تلك القوى هي عدوة الشعوب، والعدو الأول واللذود للإسلام والمسلمين نراهم اليوم وقد تخلوا ببساطة عن شعاراتهم السابقة ليرتموا في أحضان تلك القوى حتى النخاع طالبين منها حل مشاكلهم، وتقديم معظياتهم وإنجازاتهم في مجال الحرية والديمقراطية؟!

ترك الصافي النجفي عدّة مجموعات شعرية منها: "ديوان الأمواج" ١٩٣٢م؛ "أشعة ملوّنة" ١٩٣٨؛ "الأغوار" ١٩٤٤؛ "التيار" ١٩٤٦؛ "الحنان اللهب" ١٩٤٨؛ "الهواجس" ١٩٤٩؛ "شرر" ١٩٥٢؛ و"المجموعة الكاملة لأشعار أحمد الصافي النجفي" ١٩٧٨م. (الشّعار، ١٩٩٩م، ج ٢: ١٤٨)

السّخرية في شعر أحمد الصّافي النّجفي

تقول الدكتورة سلمى الجيوسى «ظهرت بادرة السّخرية في الشعر العراقي عند الزهاوى وكانت روح الزهاوى هذه والميل إلى البساطة ميزتين تابعهما بنجاح كبير أحمد الصافي النجفي، الشّاعر الجوال الذي قضى أيامه الموحشة المدقعة فقراً بين سوريا ولبنان.» (الجيوسى، ٢٠٠١م: ٢٥٨) والكويت وإيران وحفلت دواوين الصّافي

بكميّة وافرة من أبيات الهجاء وتراوحت هجائياته بين القدح المرّ والذم الخفيف والعبابة السّاخرة، بيد أن الصافي في جميع أنواع هجائه لم يتعرض لمهجّوه بلفظٍ يمسّ كرامته أو كلمة تجرح شعوره.

وأكثر أبيات الهجاء التي نظمها الشّاعر قالها في مدعى الشّعْر عموماً أو في ناقدى شعره، وحاسدى تفوّقه ونبوغه على وجه الخصوص.

غير أن ما يهمّنا في هذا البحث هو أحد أنواع هجائه وهو أسلوب السّخرية وتقول الدكتورّة سلمى الخضراء الجيوسى في معرض حديثها عن ميزات شعره: «يتميز شعر الصافي ببساطة شديدة في الأسلوب وبلغة شعريّة كثيراً ما تقترب من الكلام السّائر وهو إذا يتأمّل الحياة يكشف عن وعى مباشر ليس فقط بالمشهد الوطنى والاجتماعى حوله، وهو ما اقتصر عليه كثير من معاصريه من الشّعراء بل يعكس أيضاً وعياً بالحياة من حوله، وهو إنجاز أكثر صعوبة فقد استطاع أن يعالج المواضيع العادية فى الحياة اليومية من دون أن يتعثّر أو يعكس ذلك السّخف الذى نجده عند العقاد فى "عابر سبيل" والواقع أن الفرق الجوهرى بين الشّعارين هو أن الصافي معنى عناية مخلصّة بالحياة والوضعية الإنسانية وقادر على أن يصور المواقف المثيرة للأسى أو الهزء فى سهولة ووضوح؛ بينما نجد العقاد إما يخترع موقفاً زائفاً أو يضخم موقفاً بسيطاً، فيقحم عليه أحياناً كثيرة نبرة مأساوية.» (المصدر السابق: ٢٥٩-٢٦٠) ولا تقوم صناعة الصافي فى الشّعْر على المعانى، ممّا انعكس ذلك حتى على مظهره الخارجى فأنه لم يكن يعتنى بهندامه وثيابه قدر اعتزازه برجاحة عقله: (الصافي النجفي، ١٩٦١م: ٧)

حَسِبُوا الْيَوْمَ أَنَّهُمْ أَبْصَرُونِي أَبْصَرُوا مَظْهَرِي وَلَمْ يَبْصُرُونِي

وإذ يعرض الصّافي لأنواع شتى من التجارب يعطى انطباعاً عن رجل بالغ الانشغال بصراع مكشوف ضد المفساد، والحقارة، والخسّة، والمعاييب، والخمول، والنفاق، والجهل، والجشع، والفجاجة، والفوضى، والسياسة الغوغائية المتحفظة، ويحدّد الصورة غالباً بتفصيلات دقيقة، وقد يدخل فى جدل مع الأشياء التى يكتب عنها ويسخر منها وقد يؤنّبها بشدّة أحياناً، ولكنّه لا يقف موقف الواعظ إطلاقاً. كما شاهدنا فى شعر

الرصافي عاطفة عميقة لا تطفو إلى السطح، فتختلف في هذا عن تلك الفورة العاطفية الباذخة والرئين المتجاوب الأصداء في شعره.

ولكن الصافي يجتمع مع الرصافي أنه رجل شديد الأنفة، وهي صفة عرف بها أكثر من غيره وقد أضفت قيمة على شخصية الشاعر وهذا ما يفسر تحمّله للفقر والوحدة وعدم تنازله بأي شكل من الأشكال للسلطات السياسية وللجمهور.

وكما رأينا وسنرى لاحقاً في حديثنا عن السخرية في الشعر العراقي، أن الشعر الذي اعتبرناه ساخراً، يحمل سخرية مرة دامية تهدف إلى إيقاف الشعور الوطني، وتحريضة على الثورة ضدّ الأجنبي والمستعمر، إنه أدب يتسم بالجد والقوة والوطنية.

ويقول الشاعر والكاتب السوري عبدالغنى العطري في كتابه القيم "أدبنا الضاحك" وهو من أكبر رواد السخرية من العصر الحديث؛ «على أن الأدب الضاحك إن كان قد أعوز أدباء العراق وشعرائه المقيمين، فإنه لم يعوز قطّ شاعراً عراقياً فذاً من المهاجرين النازحين، ونعني به الأستاذ أحمد الصافي النجفي». (العطري، ١٩٧٠م: ٣١٣)

والدّارس للشعر العراقي يجد أن معظم الشعراء الساخرين العراقيين هم من السياسيين المبعدين الذين يعيشون في المنفى بسبب مواقفهم السياسية المناهضة للسلطة الحاكمة.

ومن جهة أخرى إن هذه القسوة التي نجدها في الشعر العراقي حتى السّاخر منه ربّما يكون مردّها إلى العوامل التاريخية، فقد شهد هذا البلد المصائب والويلات من قبل الحكومات الظالمة والغزاة المحتلين الطامعين في خيراته وكان لموقعه الجغرافي الممتاز أيضاً أثره في ذلك ممّا جعله محطّ الأطماع من قبل الإمبراطوريات وقوى أخرى في العصور كافة، وقد تعرّض هذا الشعب للقتل والسلب والأسر والدّمار، وهذا المسلسل التراجمي مازال مستمرا إلى يومنا هذا، وباعتبار أن الأدب والفن هما مرآة الشعوب فقد حملت هذه المعاناة والمأساة، ومن يقرأ الأدب العراقي ويستمتع إلى الألحان والأغاني العراقية يلمس نبرة الحزن هذه.

ونرى أن العامل الآخر الذي أدى إلى هذه القسوة حتى في مجال السخرية هو

اللهجة العراقية، فاللهجة العراقية خشنة ذات إيقاع صاخب، عكس اللهجات العربية الأخرى التي تجد فيها مرونة ونعومة أكثر لذا تجد أنّ العراقي قليل الكلام، كثير السكوت، يحاول أن ينتقى المفردات عندما يتحدث إليك.

أمّا الشاعر أحمد الصافي فقد شدّ عن هذه القاعدة، أي أنّ شعره السّاخر - كما أسلفنا - يتسم بروح الدعابة وهو «محبّ بطبعه للنكتة والنادرة، تجلس إليه، فيضحك من أعماقه ان فاكهته، ويغيب في قهقهة عالية أن رويت له طرفة أو نادرة، كما يسبّتك إلى الضحك إن أراد أن يروي أفكوهة أو أملوحة ... إنه مرح بطبعه يجد النكتة، ولاسيما في شعره، وكثيراً ما يظنّها قصائده ومقطوعاته، أو يختم بها تلك القصائد والمقطوعات.» (المصدر السابق: ٣١٣)

وها هو ذا في قصيدة "مستنقع الحياة" يسخر حتى من الحياة نفسها: (الصافي النجفي، ١٩٦١م: ١٤٢)

سَخِرْتُ وَسَوْفَ أَسْخِرُ مِنْ حَيَاةٍ بِنَا سَخِرْتَ لِأَغْنِيهَا كَغَبْنِي
سَأُضْحِكُ مِنْ سَخَافَتِهَا زَمَاناً كَمَا ضَحَكَتْ عَلَيَّ عَقْلِي وَذَقْنِي
سَخِرْتُ بِسَخْفِهَا زَمَاناً، وَلَكِنْ سَرَى لِي دَاوُهَا فَسَخِرْتَ مِنِّي

ويبدو أنّ الحياة جعلته يسخر حتى من نفسه أيضاً. ولنستمع إليه وهو يصف نعله البالي وحالته المادية المتدهورة في قصيدة "صباغ الأحذية" عندما أتاه مساح الأحذية، وكان لا يملك الشّاعر إلا دراهم قليلة أعدّها لقوته، فأثر أن لا يردّه خائباً فأعطاه قوت عشاءه: (الصافي النجفي، ١٩٤٦م: ٢٠)

جَاءَ يَوْمًا إِلَيَّ صَبَاغٌ نَعْلٍ وَبِنَعْلِي صَبِغٌ مِنْ الْأَيَّامِ
مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهِ لَمْ يَرِ صَبِغًا غَيْرَ صَبِغِ الْغَبَارِ وَالْأَقْدَامِ
وَكَسَتْهُ أَشْعَةُ الشَّمْسِ لَوْنًا صَارَ مِنْهُ كَقِطْعَةٍ مِنْ رِغَامِ
جَاءَ نَحْوِي يَرُومٌ صَبِغٌ حِدَائِي أَنَا لِلصَّبَاغِ أَعْدَى الْأَنَامِ

أَنَا خَصَمُ الْأَلْوَانِ تُخْفِي عُيُوبًا إِنَّ عِنْدِي الْأَلْوَانَ كَالْأَوْهَامِ
 قُلْتُ فَأَصْبَغُ لِي الْحِذَاءَ بِصَبْغٍ فِيهِ أَغْدُو مِثْلَ الذَّوَاتِ الْعِظَامِ
 فَعَدَا يَصْبِغُ الْحِذَاءَ بِحِذْقٍ مُبْدِيًا فِيهِ كُلَّ فَنٍّ تَمَامِ
 ثُمَّ بَادَرْتُهُ بِمَا ضَمَّ جِيْبِي مِنْ تَقْوِدٍ أَعَدَدْتُهَا لِطَعَامِي
 فَمَضَى هَانِيئًا وَرُحْتُ كَأَنِّي ثَمِلٌ بِالسَّخَاءِ لَا بِالْمُدَامِ!

وفي قصيدته "خير وشر" يصف يوماً أراد فيه أن يفرّ من حرّ دمشق إلى ربوع "دّمّر" فوجد سيارة قديمة، أشفق على صاحبها وكان الناس ينظرون إليه شزراً، فإذا بالشاعر يشفق على السائق ويؤثر سيارته البالية على غيرها من السيارات الجديدة الفارهة وما يكاد يأخذ مكانة فيها، حتى يتدفق عليها الركاب، فيحشرهم السائق بعضهم فوق بعض وهنا سرّ صاحبها وأخذ مكانه فيها. (المصدر السابق: ٣٢)

وَيَوْمَ لِي بِجُلُوقِ رُمْتٍ فِيهِ مِنَ الْحَرِّ الْمُهَاجِمِ أَنْ أُفِرًّا
 فَقُلْتُ: لِدُمْرٍ أَمْضَى لِأَلْقَى بَطْلَ الْخَلْدِ ثَمَّةً لِي مَقْرًّا
 فَسِرْتُ إِلَى "أُتُومِيْل" كَبِيرٍ وَكَانَ حَشَاهُ، مِثْلَ الْكَفِّ، صِفْرًا
 أَوْيْتُ لَهُ، وَلَا سِتْرَ عَلَيْهِ يَتِيكَ الشَّمْسُ إِنْ سَامَتْكَ حُرًّا
 فَرَاحَ بِهِمْ يَسِيرُ كَفْلِكَ نُوحٍ وَقَدْ تَخَذَ الْفَلَا، لِلْمَخْرِ، بَحْرًا
 فَكَدْتُ أَمُوتُ فِيهِ مِنْ أزدحامٍ وَأَسْكُنُ فِيهِ، قَبْلَ الْقَبْرِ قَبْرًا
 وَلَكِنْ وَجْهٌ سَائِقُهُ بَدَا لِي يُمُوجُ بِشَاشَةٍ وَيَمِيضُ بُشْرًا
 فَالْتَقَى نَظْرَةً مَلِئَتْ حَنَانًا الِىَّ وَأَكْثَرَ النَّظَرَاتِ شُكْرًا
 وَقَالَ: لَنَا قَدُومُكَ كَانَ خَيْرًا فَقُلْتُ لَهُ: أَجَل! وَعَلَى شَرًّا

ويبدو أن إشفاق الشاعر على الآخرين يضعه في مواقف حرجة ولكن روح الشاعر اللطيفة تخفف من وطأ هذا المأزق، ورأينا النهاية المضحكة التي اعتاد الشاعر أن يبرزها في بعض قصائده وفي ديوانه "اللفحات" في قصيدة بعنوان "رثاء لحيّة"

يرثى لحيته التي طالت بسبب فقره. وها هي
 ذَهَبْتُ إِلَى الْحَلَّاقِ يَوْمًا بِلِحْيَةٍ
 وَلَمْ تَكْ قَدْ طَالَتْ لِنُسُكٍ وَلَا رِيَاءٍ
 وَلَكِنَّمَا فَقَدْتُ الْفُلُوسَ أَطَالَهَا
 يَقِيسُ الْوَرَى مَالِي بِمِقْيَاسِ طُولِهَا
 فَإِنْ قَصُرَتْ يَوْمًا فَذَآكَ لَدَى الْوَرَى
 وَإِنْ بَلَغَتْ فِي الطُّولِ شِبْرًا وَإِصْبَعًا
 وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَجْهَ زَادَ دَمَامَةً
 مَضَيْتُ إِلَى الْحَلَّاقِ أَطْلُبُ قِصَّهَا
 وَقُلْتُ لَهُ خُذْ نِصْفَ ذَقْنِي لِتَغْتَدِي
 فَرَأَحَ يَزِيدُ الْقِصَّ فِيهَا مُدَقَّقًا
 وَكُنْتُ أَعَانِي قَلَعَ شَعْرَ بَقِصَّهَا
 وَكُنْتُ لَهُ أَشْكَو وَأَزْفُرُ صَائِحًا
 وَلَمَّا أَنْتَهَى مِنْ قِصَّهَا كُنْتُ مَيْتًا
 فَجَاءَ بِمِرَاةٍ لِأَبْصَرِ لِحْيَتِي
 بَدَأَ لِي وَجْهِي حَاكِيًا وَجْهَ أَمْرَدٍ
 فَثَرْتُ عَلَى الْحَلَّاقِ بِاللُّومِ غَاضِبًا
 فَقُلْتُ لِنَفْسِي إِنَّ هَذَا جَزَاءُ مَنْ
 وَأَخْرَجْتُ مِنْ كَيْسِي لَهُ بَعْضَ أَفْلَسٍ
 فَبِعْتُ لَهُ ذَقْنِي بِأَبْخَسِ قِيَمَةٍ

سوف نرى الكثير من هذه المفاجآت الساخرة في آخر قصائده، فالمفاجأة وتوقع

عكس المنتظر من أسباب الضحك الذي تحدثنا عنه سابقاً. مثال آخر في ديوانه "التيار" ومن قصيدته السّاخرة "صيد جديد"، في هذه القصيدة يروي لنا الصّافي أنّه مرّ ذات صباح بتاجر قد نضدّ بضاعته ونسّقها، ولبت ينتظر صيداً سميناً. فلما رأى الشّاعر من بعد، بثياه العريية، ظنّه أميراً من أمراء البدو وأصحاب الثروات «ينفق المال

في المدينة جوداً.» ويقول: (الصّافي النجفي، ١٩٤٦م: ٢٣)

جُزْتُ صُبْحاً بِقَرَبِ حَانُوتِ شَخْصٍ	وَالْبُضَاعَاتُ نُضِّدَتْ تَنْضِيداً
نَاصِبٌ لِلشُّبَّاکِ يَحْسَبُ جَهْلًا	كُلَّ شَخْصٍ يُمَرُّ، صَيْدًا جَدِيدًا
فَرَأَيْتُ كَأَنِّي بَدَوِيٌّ قَدْ	حَمَلْتُ العَنَّا وَجُزْتُ اليَّيْدَا
وَأَتَيْتُ الشَّامَ أَشْرَى لِيَّيْتِي	وَلِإِهْلِي حَوَائِجًا وَبِرُودَا
وَبِجَبِيٍّ مِنَ الدَّنَائِرِ كَنْزٌ	مُسْتَمِدٌّ مِنْ ثَرَوَةٍ لَنْ تَبِيدَا
فَرَأَى صُبْحَهُ بِوَجْهِ عَيْدًا	وَرَأَى مَطْلَعِي عَلَيْهِ سَاعِيدَا
ظَنَّ أَنِّي أَمِيرٌ بَدَوِيٌّ غَنِيٌّ	يَنْفِقُ المَالَ فِي المَدِينَةِ جُودَا
قَالَ هَذَا رِزْقُ أَتَانِي صَبَاحًا	فَعَدَا يَشْكُرُ الإِلَهَ الحَمِيدَا
أَمَلًا أَنْ تَحِلَّ عَنْهُ بِمَالِي	أَزْمَةٌ يُشْتَكِي بِهَا التَّنْكِيدَا
رُمْتُ عَطْفًا عَلَيْهِ أَنْ أَبْطِيءَ الخَطُو	لَأَبْقِيَهُ بِالخِيَالِ سَاعِيدَا
غَيْرَ أَنِّي خَشِيتُ فِي البُطءِ مِنْ أَنْ	يَضْرُمَ الحِرْصُ فِي حِشَاءِ وَقُودَا
مَا رَأَيْتُ بِالخَطْوِ أَسْرَعُ حَتَّى	طَارَ بَشْرًا وَمَدَّ نَحْوِي جِيدَا
وَرَنَا لِي بِالطَّرْفِ يَحْسَبُ جَهْلًا	كُلَّ مَا ظَنَّ فِيَّ أَمْرًا أَكِيدَا
ثُمَّ القَى شُبَّاکَ بَشْرٍ وَلُطْفٍ	فَوْقَ وَجْهِ يَرْجُو بِهَا أَنْ يَصِيدَا

وهكذا يستدرجنا الأستاذ الصّافي النجفي إلى حيث المفاجأة في البيت الأخير:
هَبَّ لَمَّا مَرَرْتُ بِالقُرْبِ مِنْهُ قَائِلًا: مَا تَرِيدُ؟ قُلْتُ نَقُودًا!!

وفي ديوانه اللفحات في قصيدة "ضرس العقل" يتحوّل ألم ضرس العقل إلى

موضوع ساخر: (الصافي النجفي، ديوان اللوحات: ٥٣)

إِنَّ ضِرْسَ الْعَقْلِ بِالْأَلَا
لَمَ قَدْ أَذْهَبَ عَقْلِي
لَيْسَ هَذَا ضِرْسَ عَقْلٍ
إِنَّ هَذَا ضِرْسُ جَهْلٍ
إِنْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْعَقْلُ
لِ فَيَا جَهْلِي دُمُ لِي
فَهَلِ الْعَقْلُ لِكُلِّ الْـ
خَلَقِ بِالْأَلَامِ يَمْلِي
لَمْ أَجِدْ مِنْ عَاقِلٍ مِنْ
ضِرْسِهِ يَصْرُخُ مِثْلِي
أَنَا الْعَاقِلُ وَحَدِي
أَوْ لَا عَاقِلَ قَبْلِي
الْوَرَى بِالْعَقْلِ يَحْيِي
وَنَ وَفِي عَقْلِي قَتْلِي
أَنَا مَا لِي مِنْ صِفَاتِ الْـ
عَقْلِ إِلَّا ضِرْسُ عَقْلٍ

نعم يبدو أن تسمية "ضرس العقل" لم تعجب الشاعر، مثال آخر في نفس الديوان من قصيدته السّاخرة "مكتبتى"، يقارن الشاعر كتبه المبعثرة في أرجاء بيته بكتب المترفين الذين يفتنونها لا لشيء سوى للوجاهة والزينة وما أكثر هؤلاء في أيامنا هذه:

(المصدر السابق: ٩٥)

مُبَعَثَةٌ جَمِيعُ الْكُتُبِ عِنْدِي
قَدْ انْتَشَرَتْ كَعَائِلَتِي بِدَارِي
تَعِيشُ بَغْرَفَتِي مُتَنَقِلَاتٍ
فَلَيْسَتْ تَسْتَقِرُّ عَلَيَّ قَرَارِ
وَكُتُبُ الْمُتَرْفِينَ مُجَمَّدَاتٌ
تَعِيشُ غَرِيبَةً عَاشِ الْإِسَارِ
مُحْرَمَةٌ عَلَيَّ أَنْظَارِ قَارِ
مُهَيَّأَةٌ لَجَاهٍ وَافْتِخَارِ
مُثَبَّتَةٌ كَجُزءٍ مِنْ جِدَارِ
مُنْسَّقَةٌ كَأَحْجَارِ الْجِدَارِ
غَدَتْ مَوْودَةً فِي مَكْتَبَاتِ
فَقَدْ بُلِيَتْ مِنَ الْمَوْتِ بِجَارِ

ويروى الصافي قصته مع "أبي شاعر"، صاحب الفندق الصغير الذي نزل فيه، فرحب به، وزعم له أنه نصير للأدباء والشعراء، ولكنه ما لبث أن سطا على كيس نقوده، الذي حشد فيه أوراقه وما تناثر من شعره، بينما دراهمه لا تبلغ العشرة! إنها قصيدة

ساخرة ضاحكة. صاغها بكلمات بسيطة تتدفق حلاوة وتفويض بالدعابة: (الصافي

النجفي، ١٩٤٦م: ٤١-٤٢)

نَزَلْتُ فِي نَزْلِ أَبِي شَاكِرٍ مِنْ حَظِّي الْمُنْتَكِسِ الْعَاثِرِ
فَكَانَ يَلْقَانِي فِي بَسْمَةٍ لَمْ تَكِ إِلَّا بَسْمَةَ السَّاحِرِ
رَاحَ يِبَاهِي أَنَّهُ نَاصِرٌ لِزُمَرَةٍ لَمْ تَلْقَ مِنْ نَاصِرِ
وَأَنَّهُ لِلْأَدَبِ مُخْلِصٌ مِنْ نَاطِمٍ فِيهِمْ وَمِنْ نَاطِرِ
يَا لَيْتَهُمْ ظَلَّوْا بِلَا نَاصِرِ لِيَسْلَمُوا مِنْ نَاصِرٍ مَآكِرِ
إِذَا رَأَيْتَنِي هَبَّ لِي مُسْرِعًا يَطْلُبُ مِنِّي إِمْرَةَ الْآمِرِ
حَتَّى إِذَا إِطْمَأْنَنْتُ مِنْ حَبِّهِ مُنْخَدِعًا فِي لُطْفِهِ الظَّاهِرِ
وَالشَّاعِرِ الصَّافِي يَخَالُ الْوَرَى تَحْكِيهِ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ
وَأَنَّهُمْ أَشْرَافُ نَفْسٍ غَدَتِ قُلُوبُهُمْ كَقَلْبِهِ الطَّاهِرِ
وَكَانَ لِي مِحْفَظَتَا ثَرْوَةٍ حَفِظْتُهُمَا يَشْغَلُ لِي خَاطِرِ
قَدْ حَوَّتَا وَسَطَهُمَا كُلَّ مَا أَمْلِكُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ
دَرَاهِمٌ لَوْ عَدَّهَا حَاسِبٌ مَا بَلَغَتْ لِدَرَاهِمِ الْعَاثِرِ
وَبِضْعِ أَوْراقٍ بِطَيَّاتِهَا حَوَّتْ شَظَايَا قَلْبِي الثَّائِرِ
عَجِبْتُ مِنْ جَبِيٍّ لَمْ يَحْتَرِقْ بِنَارِهَا وَالشَّرْرِ الطَّائِرِ
أَعَزُّ مِنْ رُوحِي فَرُوحِي بِهَا قَدْ أُفْرِغْتُ مِنْ فِكْرِي الْقَاصِرِ
تُبْصِرُ مِنْ رُوحِي شَظَايَا بِهَا أَوْ شَرَّرًا مِنْ طَرْفِي السَّاهِرِ
فَجَآنِي اللَّصُّ وَأُودَى بِمَا جَمَعْتَهُ مِنْ مَالِي الْحَاضِرِ
وَلَمْ يُمِدَّ اللَّصُّ كُفًّا إِلَيَّ شِعْرِي أَوْ دُرُّهُ بِهِ زَاخِرِ

وهنا تبلغ دعابته أوجها، حين يختم القصيدة بهذين البيتين:

خَفَفَ لِي اللَّصُّ أَبُو شَاكِرٍ حِمْلِي فَشُكْرًا لِأَبِي شَاكِرٍ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَيَّ نَكَبَتِي بِسَارِقٍ لَمْ يَكِ بِالشَّاعِرِ!

لقد سرق أبو شاكر دراهم الصافي، وأهمل أشعاره، استهانة بها ... ولكن الشاعر حمد الله على أن السارق لم يكن شاعراً، ولو كان كذلك لأدرك أن ثروة الشاعر في شعره لا في ماله!!

وفي قصيدة "أنا والبعوض" يتضايق الشاعر من البعوض: (المصدر نفسه: ١٠٧)
عَلَامَ خَلَقْتَ يَا رَبِّي بَعُوضًا يَعَذِّبُنَا بِأَوْقَاتِ الْمَسَاءِ
نُرَجِّي النَّوْمَ فِي الْفَيْ رَجَاءٍ وَنَدْعُو النَّوْمَ فِي الْفَيْ دُعَاءٍ
وَلَكِنْ حِينَ يَدْنُو النَّوْمُ مِنَّا يَشْرِدُهُ الْبَعُوضُ بِبَلَا حِيَاءِ
فَيَقْرُصُ جِسْمَنَا لَا قَرَصَ مَزْحٍ وَيَسْأَلُنَا الْكِرَى لَا عَن عِدَاءِ
نُغَطِّي عَنْهُ أَرْجُلَنَا اتِّقَاءً فَيَصِرُهُنَّ مِنْ تَحْتِ الْغَطَاءِ
عَجِيبٌ أَنْتَ يَا رَبِّي حَكِيمٌ وَفِي كَفَيْكَ مِيزَانُ الْقَضَاءِ
أَتَبْقَى النَّوْرَ فِي عَيْنِي بَعُوضٍ وَتَحْرُمُ مِنْهُ عَيْنَ أَبِي الْعَلَاءِ؟

ومن ألطف شعره الساخر قصيدة عنوانها "التخت العليل" فقد وصف الشاعر غرفته التي يأوى إليها، والبق الذي يلسعه أحياناً والبعوض الذي يطيب له أن يشرب من دمه ... ووصف كذلك سريراً نام عليه ذات يوم، قائلًا: (المصدر السابق: ٣٠-٣١)

رُبُّ تَخْتٍ سَمَّوَهُ تَخْتَ مَنَامٍ وَهُوَ حَقًّا مُكْسَّرٌ لِلْعِظَامِ
أَسَدَلُوا فَوْقَهُ سِتَارَ حَرِيرٍ زَاهِيَ اللَّوْنِ خَادَعًا لِلطَّغَامِ
نِصْفُهُ نَاتِيٌّ بِدُونِ انْتِظَامٍ جَامِعٌ لِلْوَهَادِ وَالْآكَامِ
يَنْتَهِي سَفْحُهُ بِوَادٍ عَمِيقٍ ضَيْقِ الصِّدْرِ خَافِقٍ لِلنِّيَامِ
مَنْ يَنْمُ فَوْقَ نَاتِيٍّ مِنْهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ فَوْقَ نَاتِيَّاتِ السَّهَامِ

أَوْ يَنْمَ بَيْنَ وَاطِيٍّ مِنْهُ يَحْسَبُ
 قَدْ دَعَاهُ الْأَنْامُ تَخْتَ مَنْامٍ
 كَمْ أَتَوْا نَحْوَهُ بِضَيْفٍ جَدِيدٍ
 نَامَ مِنْ فَوْقِهِ فَمَا نَامَ لِلصَّبْحِ
 نَامَ مِنْ فَوْقِهِ صَاحِحًا فَلَمْ يَمِ
 ظَلَّ لِلصَّبْحِ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ نَوْمٍ
 بَاتَ فِي تَخْتِهِ يَبْنُ وَمِنْهُ
 رَاحَ مِنْهُ يَسِيرٌ مُنْحَنِي الظُّهُمِ
 شَخِرَ الضَّيْفُ حِينَ نَامَ فَلَامَوْهُ
 لَمْ يَكُنْ طَبْعُهُ الشَّخِيرَ وَلَكِنْ
 لَوْ وَضَعْتَ الْأَحْجَارَ فِي قَالِبِ الضُّغْطِ
 أَنَّهُ التَّخْتِ مَارَجَتِ أَنَّهُ
 يَنْذِرُ التَّخْتِ ضَيْفَهُ بِأَنْبِينِ
 وَكَأَنَّ الْأَنْبِينِ مِنْ جَانِبِ التَّخْتِ
 أَوْ كَأَنَّ الْأَنْبِينِ مِنْهُ زَفِيرٌ
 قَائِلًا: إِنِّي عَلِيلٌ فَهَلْ أَسْتَطِيعُ
 قَالِبَ الضُّغْطِ وَسَطَ تَخْتِ الْمَنَامِ
 وَهُوَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ تَخْتُ انْتِقَامِ
 كَبْرِيٍّ يَسَاقُ لِلْإِعْدَامِ
 لَفَرَطِ الْأَوْجَاعِ وَالْآلَامِ
 ضِيقِ قَلِيلٍ حَتَّى غَدَا ذَا سِقَامِ
 وَيُوَالِي أُنَاتِهِ بِانْتِظَامِ
 فَرَقِبْ لَ انْهَزَامِ جَيْشِ الظُّلَامِ
 رِيقِ قَدِ كَانَ مُسْتَقِيمِ الْقَوَامِ
 وَمَا كَانَ مُسْتَحَقَّ الْمَلَامِ
 عَصْرُوهُ فَصَاحَ مِنْ الْأَمِ
 لَأَنْتِ، وَإِنْ تَكُنْ مِنْ رُخَامِ
 الضَّيْفِ فَالْفَنُ مُشْجِي الْأَنْغَامِ
 مَا نَحَا نَصْحَهُ بِدُونِ كَلَامِ
 بُكَاءِ عَلَى الضُّيُوفِ الْكِرَامِ
 أَوْ شُكَاوِي بَيْتِهَا لِلْأَنْامِ
 حَمَلًا لِهَذِهِ الْأَجْسَامِ؟

ويهاجم الصافي شعراء المراثي، أولئك الذين يتسابقون ويتهافتون ويغتمونها فرصة لإبراز مواهبهم وشحذ قرائحهم كلما مات عظيم - فيرثونه - كما يقول بشعر ميت! قد كان أولى منهم برثاء. (المصدر السابق: ١٠١)

مَا مَاتَ دُوَّ شَأْنٍ بِنَا إِلَّا بَدَتِ
 فَكَأَنَّهُمْ دِيدَانٌ جِسْمِ مَيْتِ
 شُعْرَاءُ قَدْ جَلَّتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ
 نُشِرَتْ مِنَ الْأَمْوَاتِ فِي الْأَحْيَاءِ

يرثون مَيَّتَهُمْ بِشِعْرٍ مَيّتٍ قد كانَ أُولَى مِنْهُم بِرِثَاءِ
لَوْ عَادَ ذَاكَ الْمَيّتُ حَيًّا مَاتَ مِنْ شِعْرٍ رَثَوَهُ بِهِ بِدُونِ حَيَاءِ
لَوْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَرِثُونَهُ مَا مَاتَ كَيْلَا يَبْتَلَى بِهُرَاءِ
يَا مَوْتَ رِفْقًا لَا تُصِيبُ ذَا مُحْتَدٍ كَيْلَا تَهَيِّجَ عَفْوَنةَ الشُّعْرَاءِ!

وفى ديوانه "أشعة ملوثة" يسخر من شخص جاهل يدعى أستاذًا: (الصافي النجفي، ديوان أشعة ملوثة: ١٦)

وَعَبَّي سَمِيئَةً أَسْتَاذًا وهو فى جَهْلِهِ مِنَ الْأَفْذَاذِ
قِيلَ هَلْ رُمْتَ رَفَعَهُ قَلْتُ كَلَّا رُمْتُ إِسْقَاطَ كَلِمَةِ الْأَسْتَاذِ

هذا ولم تسرّ الشّاعر بشرى معاش التقاعد فقال: (المصدر السابق: ٢٤)
قَالُوا جَرَى (التَّنْسِيقُ) قُلْتُ إِلَيْكُمْ عَنِّي فَلَيْسَ يَصِيْبُنِي بِرِشَاشِ
أَنَا أَحْسَدُ (الْمُتَقَاعِدِينَ) لَأَنْبِي (مُتَقَاعِدٌ) لَكِنْ بِدُونِ مَعَاشِ

ونضحك مع الصّافي أيضاً حين يتحدث عن ثوبه الجديد الذى ارتداه؛ ومن عادة الناس أن يزهو بثيابهم الجديدة، ولكن الصّافي على العكس، يؤثر ثيابه القديمة، وحتى البالية منها، وقد ذكرنا سابقاً أنّه لم يكن يهتم بمظهره، ويسخر من الناس الذين يحتفون بمن يلبس الثياب الفاخرة بل إن الشّاعر يخجله الثوب الجديد: (الصافي النجفي، ١٩٤٦م: ٣٤)

لَبِسْتُ ثَوْبًا جَدِيدًا فَكَتَسَبْتُ بِهِ شَأْنًا جَدِيدًا وَصَارَ الْكَلُّ يَكْرِمُنِي
تَغَيَّرَتْ نَظَرَاتُ النَّاسِ لِي وَلَقَدْ كَانَتْ تُرِيْبُنِي نَفُورًا حِينَ تَبْصِرُنِي
فَصَارَ يَبْسُمُ لِي مَنْ كَانَ يَعْبَسُ بِي وَصَارَ لِلصِّدْرِ يَدْعُونِي وَيَجْلِسُنِي
كَأَنَّمَا أَنَا هَذَا الْيَوْمَ غَيْرِي فِي أَمْسِي وَمَا بُدِّلَتْ رُوحِي وَلَا بَدَنِي
إِنْ كَانَ حَسَنٌ لِبَاسِي قَدْ دَعَاهُ إِلَى هَذِي الْحَفَاوَةِ بِي فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ

فليمض تَوًّا إلى سُوقِ القُمَاشِ لِكِي
ظَنَنْتُ البِستِي لِلْبُلْهِ خادِعَةً
الْكُلُّ تَفْتِنُهُ الأَلوانُ زاهِيَةً
قَد كُنْتُ فِي رائقِ الأَلوانِ أُخدَعُهُم
إِنْ كانَ حُبُّهُمُ لِلَّونِ أَضْحَكُنِي
النَّاسُ يُخجِلُهُمُ بِأالى ثِيابِهِمُ
جَدِيدُ ثوبِي كالأِعلانِ يَجلبُ لِي
لَوْ كُنْتُ فِي الطَّيْرِ طَاووسًا خَشِيتُ إِذْ
يَلقى لَهُ سَجْدَةَ العَبادِ لِلوِثَنِ
وَإِذِ بِهَا خُدَعَتْ حَتَّى ذَوَى الفِطَنِ
وَلَيْسَ بِالجَوهْرِ العَاليِ بِمُفْتَنِ
لَولا حَياءٌ عَن التَّموِيهِ يردُّعُنِي
فَإِنَّ جَلْبِي لَهُمُ بِاللَّونِ يَضْحَكُنِي
فَكيفَ بِي وَجَدِيدُ الثَّوبِ يَخجِلُنِي
أَنْظَرَهُمُ فَيَسألِيهِمُ وَيحزُنُنِي
تَطلُعُ النَّاسُ حَتَّى لَم أَدعُ وَكُنِي

ولكن لديه ما يبرر حبه للثياب البالية ويعتقد أنها ميزة له، تفرق بينه وبين الجهال:
(الصافي النجفي، ديوان اللفحات: ١٨٠)

قَد حَجَّبتُ جَوهري العُلوي البِستِي
فَصارَ يَسعَى إِلى لِقيايَ، ذُو فِطَنِ
فَرَقَّتْ ما بَينَ جُهَّالِ وأهلِ حِجِّي
كَالرَّمْلِ يَحجُبُ عَنَّا عَاليَ الذَّهَبِ
وَصارَ يَهْرُبُ مِن مَرأى كُلِّ غَبي
كَالعقلِ فَرَقَ بَينَ الصِّدقِ والكذبِ

وكثيراً ما يسخر الشاعر من فقره إذ يقول: (الصافي النجفي، ديوان أشعة ملوثة: ١٩)
صَافِحَتِي يَدُ امريِّ فَرَأَتُنِي
قَالَ هذِي حَراةُ الإِيمانِ
سَأخُنَ الكَفِّ مِن لظى الوَسواسِ
قَلتُ لا بَل حَراةُ الإِفلاسِ!

وربما نصحه أحدهم بأن يدخر الفلوس الأبيض ليوم أسود فأجاب الشاعر قائلاً:
(المصدر السابق: ١٨)

قَد قِيلَ وَقرَ إِذ تَكُن حازِمًا
فَقُلْتُ أَيامِي سوَدُ فَهَلْ
مِن يَوْمِكِ الأَبيضِ للأَسودِ
أَكُنزُ مِن يَوْمِي شِقًّا لِلغَدِ!

ويسخر من الطبيب الذي أراد أن يداويه: (المصدر السابق: ٦٠)

جَسَّ الطَّبِيبُ يَدِي فَارْتَاعَ مِنْ مَرَضِي وَقَالَ دَاؤُكَ يَعْبَى طَبَّ إِبْلِيسِ
لَكُنَّي سَادَاوِي الْيَوْمَ جِسْمَكَ مِنْ أَسْقَامِهِ، قَلْتُ: قَبْلًا دَاوِلِي كَيْسِي

ويلاحق الشّحاذون الصافي، ظننا منهم أنّه أمير غنى، ويشكون له كثرة النسل والأولاد فيقول: (المصدر السابق: ٤١)

دَعَانِي بِالْأَمِيرِ وَكُنْتُ أَوْلَى بِأَنْ أَدْعَى أَمِيرَ الْمُفْلِسِينَ
عَجِيبٌ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ تَوًّا إِلَيَّ وَيَتْرَكُونَ الْمُوسِرِينَ
فَهَلْ مِنْ جِنْسِهِمْ أَنْ قَدْ رَأَوْنِي فَجَاؤُونِي مَعَا مُسْتَعْطِفِينَ؟

ولكن لنستمع إلى جوابه اللاذع حين يشكون كثرة النسل والأولاد، يقول: (الصافي النجفي، ديوان التيار: ١١٣-١١٥)

لِكَ اللَّذَاتُ فِي إِيجَادِ نَسْلِ وَنَحْنُ بِحِفْظِ نَسْلِكَ مَلْزَمُونَ
فَهَلْ مِنْ جِنْسِهِمْ أَنْ قَدْ رَأَوْنِي فَجَاؤُونِي مَعَا مُسْتَعْطِفِينَ؟

ومن موضوعاته الشعرية الشبه ساخرة أنّه يشيد باليأس ويطريه ويعجب بمحاسنه حيث يقول: (الصافي النجفي، التيار: ٣٤)

مَا أَجْمَلَ الْيَأْسَ يَعْطِي لِنَفْسِي اسْتِقْلَالًا
إِذْ لَيْسَ يَبْقَى لِنَفْسِي بِالْكَائِنَاتِ اتِّصَالًا

وله طريقة فورية في القضاء على الفقر مغايرة لما جاء في أشعار الزهاوي والرفاعي والشعراء الإصلاحيين كافة قديماً وحديثاً: (الخياط، ١٩٨٧م: ١٠٩-١١٠ نقلا عن أشعة ملونة: ٥٣)

كَمْ غَنَى لَمْ يَعْطِهِ اللهُ نَسَالًا وَفَقِيرٌ يَبْلَى بِنَسْلِ كَثِيرٍ
فَلَوْ أَنَّ الْأُمُورَ كَانَتْ بِكَفْيِّ كُنْتُ أَخْصِي فِي الْكُونِ كُلِّ فَقِيرٍ

ويدعو الله أن يشوه وجوه النساء الجميلات الفاتنات لئلا يقع في غرامهن والاكْتَوَاءِ بجفائهن: (الصافي النجفي، ديوان التيار: ٤٤)

يَارَبِّ شَوْهٍ لِي وَجُوهَ الْغَيْدِ كَيْلَا أُعَذَّبَ مِنْهُمْ بِصُدُودِ

ويكره أجهزة المذياع كرهاً شديداً: (الخياط، ١٩٨٧م: ١١٠ نقلا عن المجموعة الكاملة لأشعار أحمد الصافي غير المنشورة، ١٩٧٧م: ١٣)

(الراديات) مُصِيبَةٌ بِضَجِجِهَا إِنَّ أَمْسَكْتَهَا كَفَّ جِلْفٍ ضَارِ

لَيْسَ الْحِمَارُ بِمُزْعَجٍ فِي صَوْتِهِ أَبْدَأُ كَمِذْيَاعٍ بَيْتِ حِمَارِ

إن الصافي يفضل صوت الحمار على صوت المذياع ويشبه مالك المذياع بالحمار. والصافي ينتقد الصحف ويتهجم عليها ويسخر منها ويقول ليس للصحف مهمة

خاصة ولا علاقة لها بالنشر والإعلام: (المصدر السابق: ١١٠)

جَعَلْتُ عَلَى الصُّحُفِ اتِّكَائِي لِرَاحَتِي فَلَيْسَ سِوَى جِلْدٍ وَعَظْمٍ مَجَالِدِ

خَلَا الْعَظْمُ مِنْ لَحْمٍ يَقِيهِ صَلَابَةٌ فَعَوَّضَهُ عَنْهُ بِلَحْمِ الْجَرَائِدِ

والصافي عدو لدود للزواج ولا سيما إذا كان المرشح له شاعراً: (المصدر السابق: ١١٠)

إِذَا شَاعِرٌ رَامَ اقْتِرَانًا بِزَوْجَةٍ فَفِي الْبَيْتِ مَجْنُونَانِ يَصْطَرِعَانِ

كَفَانِي جُنُونُ الْعَبْقَرِيَّةِ شَاغِلًا أَضْفَى عَلَيْهِ مَنْ جُنُونِ غَوَائِي

فَكَيْفَ إِذَا زُوِّجَتْ شَاعِرَةٌ إِذْنَ أَعِيشُ وَمَجْنُونِينَ يَصْطَدِمَانِ

فَلِلْمَرَأَةِ الْحَسَنَاءِ تَأْثِيرُ خَمْرَةٍ فَمَا اجْتَمَعْتُ وَالْعَقْلُ ضِمْنَ مَكَانِ

وتنتهب المرأة نصف عقل الرجل ويجهز الأولاد على النصف الثاني منه:

(المصدر السابق: ١١١)

مَنْ رَامَ حِفْظًا لِعَقْلِ عَاشٍ مُتَبَعِدًا عَنْ ثَرَاتِ النِّسَاءِ أَوْ صَخْبٍ وُلْدَانِ

فَالزَّوْجُ تَأْخُذُ نِصْفَ الْعَقْلِ زَوْجَتَهُ وَيَأْخُذُ الْوَلَدُ مِنْهُ نِصْفَهُ الثَّانِي

وحين يريد الأدباء أن يقيموا احتفالاً له يرفض ذلك ويرى أن مهرجانه الحقيقي

بين الناس في الشارع ومع الزحام: (المصدر السابق: ١١١)

كُنْتُ فَوْقَ الرَّصِيفِ أَجْلِسُ يَوْمًا وَعَلَيْهِهِ لِلْعَابِرِينَ زِحَامُ

جاء من لم أعرفه، قال لي: سلامٌ
 أنتَ ذاك (المحكى بين طيور)
 قلتُ مَنْ؟ قال مَنْ بشِعركِ هاموا
 وسواك الأصداءُ والنظامُ
 كان ذاك السلامُ لي مهرجَاناً
 مهرجاني على الرصيفِ يقامُ

ويهزأ بمن يفضى إليه أن بيته سيكون متحفاً بعد موته، فمن كان عمره طوافاً
 وتشرداً لا يمكن أن يقرَّ في بيت فيقول في ذلك: (المصدر السابق: ١١١)
 يقولون بيّتي سوف يغدو محجةً
 إذا ما طوى شخصي القضاء المحتم
 يحجُّ له عشاقُ شعري مواكباً
 يقبله هذا وذاك يسلم
 فقلتُ وهل لي أيُّ بيتٍ يضمُّني
 وعمري طوافٌ مُزمنٌ وتبرمُ
 فبيّتي مقاهٍ جمّةٌ وفنادقُ
 أقيمُ بها حيناً فأشقى وأهزمُ
 وبيّتي زوايا لا تعدُّ سكنتها
 وروضٌ وصحراءُ بها كنتُ أنعمُ
 وكرسیٌّ مفهَى كنتُ أجلسُ فوقه
 وشاطئٌ بحرٌ أهنأ فيه وأحلمُ
 وبيّتي خراباتٌ بشعري عمّرتها
 أجيئُ لها أبغى الهدوءِ وأنظمُ

النتيجة

لقد رأينا شاعرنا الصافي ونبرته الساخرة إلى كثير من المواقف والأمر التي وقعت
 من حوله، وكان مشرداً بين الدّول لا يملك لنفسه لاسكناً ولا داراً، ولا مقرّاً ولا
 استقراراً، لقد كان مطارداً من قبل السّلطات العراقية وكان مطارداً من قبل الحكومات
 الأجنبية، ولكن إرادته كانت أقوى من أسلحة تلك الحكومات، نعم يعدّ شاعرنا
 المترجم له من الوطنيين الدرجة الأولى الذي جعل من شعره السّاخر سلاحاً يهاجم به
 المحتلين والمعتدين على بلاده، وكذلك هاجم بشعره المتهمم السّاخر الحكّام
 المحليين الذين كانوا يقسون على شعبهم ويظلمونه أشدّ ظلم. إنّ ما ذكرنا ما أتينا به
 حول سخرية الشاعر ما هو إلا القليل وعلى من يرغب في التعرف على أشعار الشاعر
 مراجعة دواوينه المذكورة أعلاه، فإنّها ستفي بالعرض لوجود العديد من الشعر الفكاهي

الساخر والهادف بنفس الحال.

المصادر والمراجع

- (١) ابن منظور، جمال الدين. ١٩٩٨م. لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- (٢) الأصفهاني، أبو الفرج. ١٩٩٢م. الأغاني. شرح أ/عيد على مهنا. بيروت: دارالكتب العلمية.
- (٣) أنوشة، حسن. ١٤١٢ق. فرهنگنامه أدبی فارسی. تهران: دفتر نشر فرهنگ اسلامی.
- (٤) برهومي، خليل. ١٩٩٣م. أحمد الصافي النجفي شاعر الغربة والألم. بيروت: دارالكتب العلمية.
- (٥) بصرى، مير. ١٩٩٤م. أعلام الأدب العربي في العراق الحديث. لندن: دار الحكمة.
- (٦) بطي، رفايل. ١٩٢٣م. الأدب العصري في العراق العربي (قسم المنظوم). مصر: المطبعة السلفية.
- (٧) الجوهري، إسماعيل بن حماد. ١٩٩٠م. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. بيروت: دار العلم للملايين.
- (٨) الجبوسي، سلمى الخضراء. ٢٠٠١م. الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث. ترجمة: عبد الواحد لؤؤة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- (٩) الخياط، جلال. ١٩٨٧م. الشعر العراقي الحديث. بيروت: دار الرائد العربي.
- (١٠) الزبيدي. لاتا. تاج العروس. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- (١١) شرارة، عبداللطيف. لاتا. الصافي. بيروت: دار صادر.
- (١٢) الشعار، فوزان. ١٩٩٩م. الموسوعة الثقافية العامة (الشعراء العرب). بيروت: دار الجيل.
- (١٣) شمس آبادي، حسين واصغر مولوي نافيجي وغلامرضا گلچين راد. ١٣٩٠ش. «القضايا الاجتماعية في مرآة شعر الرصافي». فصلية دراسات الأدب المعاصر. السنة الرابعة. العدد ١٣. صص ٣٠-٩.
- (١٤) الصافي النجفي، أحمد. لاتا. ديوان أشعة ملوثة. ط ٢. بيروت: منشورات العصريه للطباعة.
- (١٥) _____ ١٩٦١م. ديوان الأغوار. بيروت: دار العلم للملايين.
- (١٦) _____ ١٩٤٦م. ديوان التيار. دمشق: لجنة الترجمة والتأليف والنشر العراقية.
- (١٧) _____ لاتا. ديوان اللفاتح. بيروت: دار الريحاني للطباعة والنشر.
- (١٨) _____ ١٩٨٣م. حصاد السجن. بيروت: مكتبة المعارف.
- (١٩) العطري، عبدالغني. ١٩٧٠م. أدبنا الضاحك. بيروت: دار النهار.